المناضلون .. ذكريات حدث لاينسى

● في نهاية العقد التسعيني من العمر ويتحدث بلباقة وإدراك عجيب لم تنل منه سنوات السجن ولم توهنه أعوام النضال والمتاعب قبل الثورة بل كانت زاداً وقوتاً وقوة للإصرار على مواصلة اتصاله مع الأحرار من أجل أن ينال الشعب حريته واستقلاله .. الشعر والكتابة كانا أبرز وسائله وصرخاته في وجه الطغاة، تعذَّب كثيراً وتعرض للمنون مراراً، وما زال من أجل شعبه يبذل الروح راضياً مختاراً.. قال هذا وهو في قلب السجن في حجة بعد ثورة ٤٨م وقال مثل هذا الشعر وهو يرى الرجال يقادون إلى ساحات الإعدام والسيوف تقطع رؤوس الأحرار الذين قالوا: لا للظلم والقهر والاستبداد، وكانت مطالبهم العدل والحرية ونظاماً يحترم إنسانية الإنسان..

التقيته في منزله بعد تحديد الموعد واستقبلني بترحاب .. تحدث بشفافية مطلقة وبكلمات تلبس ثوب الابتسامات الجميلة، تحدث عن وضع اليمن قبل الثورة وسياسات الحكم الإمامي وتذكر فرحة الناس بالثورة وما حققته الثورة .. تحدث عن خلافات رجال الثورة، وعاد بنا سنوات كثيرة يقص عن مكان وزمان وموقف ومناسبة مأثورته الشعرية المشهورة.

عزيزي القارئ: إليك ملخص ماقاله الأستاذ الشاعر المناضل/ إبراهيم الحضراني..

التقاه/ محمد حسن شبيطة

الشاعر/ إبراهيم الحضراني يتنقل بين مرافئ زمن الثورة

البدر طالبني بمليون ريال قيمة صفقة سلاح..!!

كنا ننتظر الموت في السجن كل لحظة

– بين مرافئ ذكريات عديدة تنقل حديث الأستاذ/ إبراهيم الحضراني .. يختلط الحديث عما قبل الثورة بما بعدها مباشرة وما تلاها لاحقاً .. تلمع ذاكرة معينة قديمة فيعود الكلام والسرد إليها، وهكذا هي الذكريات عندما تتدافع في وقت واحد، وهكذا هي الذكريات غير (المنمقة) غير مرتبة بتسلسل الأحداث لكنها واضحة..

صورة الوضع في اليمن قبل الثورة كانت أول مرفأ لذاكرة الحضراني انطلق منه وعاد إليه أكثر من مرة .. وفي هذا الموضع يقول الحضراني:

بالنظر إلى الظروف قبل ثورة ٢٦ سبتمبر فقد كانت معروفة لدى العالم بتخلفها عن حالة الحياة في العالم كله وكانت معروفة بجمودها وقد سبقتها ثورة ١٩٤٨م وما حصل فيها من قتل وتشريد وسجن ونستطيع أن نقول بأنه بالرغم من أن ثورة ٤٨م مهّدت إلى حد كبير لثورة سبتمبر إلا أن الظروف كانت هي هي!! ماعدا إصلاحات بسيطة قام بها الإمام أحمد مثل ميناء الحديدة وطريق صنعاء الحديدة وكهرباء وتلفونات قليلة وقليل من البعثات إلا أنها لم تؤثر شيئاً في مشاعر الناس فقد ظلت المشاهد والمشاعر كما هي فالشعور بالتخلف لم ينحصر لدى اليمنيين فقط، ولكن تعدى ذلك إلى خارج اليمن دولاً وشعوباً كانت تعرف حقيقة الوضع في اليمن..

أخبرني أحد الأصدقاء أن واحداً من أسرة بيت حميد الدين قام بعد ثورة ١٩٤٨م بحملة ترويج واسعة ضد الثورة وعند وصوله إلى مصر جلس يشكو إلى الصحفي المشهور مصطفى أمين صاحب «أخبار اليوم» مايقوله الثوار عن بيت حميد الدين ونظامهم، وكان مصطفى أمين يصغي إلى حديثه دون مقاطعة وواصل الرجل تجنيه على الثوار بالكثير ولم ينطق مصطفى أمين إلى آخر الحديث بكلمة واحدة حتى أجابه بقوله: «ولكن سياستكم وحشة» وهنا عرف هذا المتجني على الثوار أن كل كلماته لم تؤثر في الرجل وأن القاصي والداني يعرف حقيقة مثل هذه السياسات القاتلة.. هذه هي الأوضاع قبل الثورة أضف إلى ذلك أن الشعوب العربية وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢م ومنها الشعب اليمني تشبعت بالروح الثورية فظهور صوت العرب والحلقات المتوالية في «الشرق العربي».

ويتحدث الحضراني عن نفسه: «أنا كنت موظفاً وفي وظيفة مرموقة إلا أني كنت مندمجاً مع الوطنيين الشباب حيث كان الشباب يعملون بجد واجتهاد».

والجديد الذي أحدث شيئاً من الإرباك في البرامج الوطنية هو موت الإمام أحمد لأن كل شيء كان يتركز قبل موته على كيفية القضاء عليه، ومن يتولى هذا، وإذا به يموت فجأة مما أوجد الارتباك.

قطن بـ(سلاح)

ويسرد كلامه عن مكان وجوده يوم انفجار الثورة، وكيف قابلها، وكيف تراكمت مشاعره .. يقول:

– يوم الثورة كنت أنا في الحديدة وصادف أن الرئيس السلال –رحمه الله– مر من الحديدة فقلت له إن الأمور تسير بطريق واضح، ولكن عليكم أن لاتسرفوا في القتل وسفك الدماء، فالذي تخشى منه الثورة هو سفك الدماء وقلت له ليس هناك مانع أن يسجن ويقتل من تصدى وقاوم الثورة ولكن من لاتظهر منه أية بادرة من ذلك أرجو أن لاتمسوهم بسوء، وكل ذلك من أجل الثورة، وحرصاً على نجاحها ومستقبلها، فوافق السلال وقعدت أنا في الحديدة أؤدي المهمة.

ويعود بنا الحديث إلى وضع ماقبل الثورة حيث فوجئ الأستاذ الحضراني في أحد الأيام بالبدر يطلب منه الحضور بوجود عدد من المسؤولين وعند وصوله إليهم قالوا له: أنت مطالب بمليون ريال.

ويقول الحضراني: عند هذا الطلب ذهلت واندهشت لذلك وقلت لماذا؟ أجابوني إن هذا الدين الذي على الدولة قيمة صفقة السلاح «لتشيكوسلوفاكيا» فاليمن مطالبة بتسديده، فاستدركت وقلت وما أصنع فقالوا تنزل إلى تهامة وتشرف على زراعة القطن مع من شئت من المسؤولين ونزلت مع عدد من المسؤولين الكبار وطفنا تهامة على أساس نزرع القطن في أطيان الدولة، وهذا واقع البلد حينذاك في سياساتها، ولكن عندما وجدت ذلك فكرت أنه لو اقتصرنا على هذا الحل فالخسارة حليفنا ولن نستفيد شيئاً فكرنا بأن نعطي الفلاحين ليزرعوا والحكومة تشتري القطن منهم، وجاءت الثورة وأنا هناك أتابع هذا المشروع، وقد أشاد خبراء الزراعة بفكرتي وكانت أفضل سنة لنجاح زراعة القطن ولما سمعت بقيام الثورة أردت أن أتحسس ذلك فبعثت برقية للبدر أهنئه بنجاح زراعة القطن ولم يرد وإذا بنا نسمع الاذاعة تعلن قيام الثورة فباركناها وبقيت مع مدير أمن الحديدة آنذاك محمد الرعيني وحمود الجائفي وعدد من الأحرار وقمنا بما نستطيع لتنظيم الوضع، وما هي إلا يومين ووصلت برقية من قادة الثورة بطلبي أنا وبعض الإخوان وبوصولنا إلى صنعاء إلى مبنى القيادة فوجئت بتعييني نائباً لوزير التموين بينما لم تكن لي خبرة في ذلك فكنت أفكر أني سأكون في الخارجية حسب تجربتي وخبرتي فيها فترة طويلة.

خلافات

ويصف أحداث مابعد الثورة بقوله: لم استمر في التموين فعينت نائباً لوزير الإعلام وكان يومها الوزير الأحمدي بعد ذلك جاء عبدالرحمن البيضاني وبوصوله اكتست القضية ثوباً جديداً فلم تبق القضية يمنية محضة بل تدخلت التوجيهات من القيادة المصرية في اليمن بتوجيهات السياسة الإعلامية اليمنية وتجاوبنا معها إلى حد كبير ولم نرفضها إلا أن هناك قضايا كنا نحن أعرف بها وبعد ذلك حصلت لخبطة في التشكيلات الوزارية مثلاً السلال والآخرون شكلوا وزارة، وجاء البيضاني وشكل وزارة أخرى ، وهنا بدأت عجلة الخلافات تدور، وبدأت سياسة التخبطات الكثيرة والكبيرة ولم نشعر في أحد الأيام إلا وقد استدعونا وجمعوا كل القيادات اليمنية منهم الارياني والنعمان والمشائخ والضباط وكل المؤثرين في الساحة وكنت من ضمن هذا الجمع مع محمد علي عثمان ويحيى منصور، وقالوا لنا المطلوب منك التوجه إلى القاهرة لعرض القضية اليمنية والتدخل (الخارجي) على الجامعة العربية، وبوصولنا إلى القاهرة اكتشفنا أننا مبعدون فامتلأت بنا الفنادق في القاهرة وكل ذلك نتيجة للخلافات والصراعات بعد الثورة.

الأيام الأولى

وعودة للأيام الأولى للثورة ليصف الأستاذ الحضراني الرد الشعبي والجماهيري عند قيام الثورة فيقول: لقد عمّ الفرح كل الجماهير اليمنية على الرغم من أن سمعة البدر لم تكن سيئة لأنه لم يتول الحكم، ولكن الشعب من كثرة المعاناة وسنوات التخلف والقهر كان مهيأ للثورة، ولذلك فإن أي ثورة تحمل شعارات تستطيع أن توجه الجماهير والأهم من ذلك أن الشعب كان مهيأ كما قلت نتيجة المعاناة والتخلف والظلم وسياسات القتل.

وباسترجاع الذاكرة إلى المأثورة الشعرية المشهورة للحضراني (كم تعذبت في سبيل بلادي ....)، يقول: إن الزمن كان بعد ثورة ١٩٤٨م والموقف الذي قيلت فيه بدخلونا سجن حجة بعد هذه الثورة (٤٨) كان الشعور لدينا نحن معشر الثوار بأننا قمنا بشيء يستحق الموت حيث لم يكن لدينا شك بأن الموت قادم لامحالة، فلفت نظرنا الأستاذ/ أحمد النعمان وقال: لايليق بنا أن نسكت، وقال هناك قضايا بالتاريخ تشبه قضيتنا يجب أن نستخدمها في مخاطبة الإمام ومثل هذه القضايا موقف الرسول صلى الله عليه وسلم في فتح مكة عندما ظفر بكفار قريش وفيهم من تآمر على قتله، ومنهم من سبه، ومن آذاه..

▫ موت الإمام أحمد فاجأ الأحرار وأربكهم

▫ ثورة ١٩٤٨م مهدت كثيراً لثورة ١٩٦٢م

▫ (كم تعذبت في سبيل بلادي) اخترتها لتكون آخر كلماتي قبل الموت

لذلك خاطبنا الإمام أحمد بأن النبي صلى الله عليه وسلم خاطب هؤلاء بقوله: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ولكن جواب الإمام فيه من القسوة مايهز الجبال. فرد قائلاً: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ولكن اسحقوهم سحقاً واضربوهم بالسيف ضرباً(!!).

وهنا كنا ننتظر الموت ومستعدين له وكانت المشاعر في هذا الوقت أليمة ليس خوفاً على أنفسنا ولكن كان يحز في نفوسنا أن اليمن بعد موت هذه الكوكبة من الأعلام والمثقفين والعلماء ماذا سيكون مصيره ولمن سيترك أمره لأن هذه الفئة كانت هي الفئة اليمنية، المستنيرة والحساسة والقوية في مقاومة الظلم. فقلنا لمن نترك اليمن؟ وكنا نستعرض الثورات وتاريخها في سوريا وتركيا، وعدد من البلدان فخطر لي مآحصل للثوار السوريين المقاومين للعثمانيين حيث كان جمال باشا التركي عندما يأمر بقتل أحد الأحرار فكان يطلب من القتيل قول كلمته الأخيرة، عند ذلك أنا قلت: يجب أن تكون لي كلمة قبل الموت فقلت: هذه الأبيات ضمن قصيدة والأبيات هي:

كم تعذبت في سبيل بلادي
وتعرضت للمنون مرارا
وأنا اليوم في سبيل بلادي
أبذل الروح راضياً مختارا

وعند ذلك حفظها المساجين كلهم وكان الشيء الرهيب في السجن أن كل واحد منا لايعرف مصيره ولا موعد قتله حيث لامحاكمات ولاتحقيقات ولم نكن نعرف أن هناك موعداً للقتل إلا عندما يتم إغلاق أبواب السجن.

داخل السجن

وعن رد فعل الإمام عند سماعه لهذا الشعر يؤكد على أن الإمام كان يسمع وسمع الكثير وأعود (والكلام له) إلى ذكر الشهيد/ حميد الأحمر حيث كان مسجوناً مع سجين يحب ويوالي الإمام وهو محمد أحمد الشامي الذي بعد دخوله السجن قرر بإخلاص أن يربط مصيره بالإمام؛ بينما كان قبل ثورة ١٩٤٨م مع الأحرار ولكن بعد السجن قرر موالاة الإمام قلباً وقالباً وكان من حسن حظ هذا الرجل انه مات في اليوم الثاني لموت الإمام وهذا الرجل كان سجيناً مع حميد الأحمر، وأنا كنت أبعث بقصائدي إلى الشهيد حميد الأحمر وهو يطلعه عليها ومن ضمنها:

أين مضى السؤدد والمفخر
وأين أين الملك ياحميرُ
وكيف ظل العرش من بعد ما دنى
له الأسود والأحمرُ
أين أسودٌ من بني يعرب
زاهى بها غمدان والتعكرُ
كأنما الخضراء من بعدهم
قد تولى عيشها الأخضرُ
سفينة قد مات ربانها
أو غابةٌ فارقها القصورُ
....الخ الأبيات.

وهذه القصيدة وصلت إلى الإمام، وكذلك رثائي لعدد من الأحرار ومنهم الشهيد/ جمال جميل والذي أولها:

حتى مايأوطني أراك تضامُ
وعلى أديمك تعبد الأصنام
وإلى مايمضي بالرزيئة والأسى عامٌ
ويأتي بالفجيعة عامُ

وهذه حفظها المساجين وعلي عامر رحمه الله كتبها (وفعلها في العصب حق القيد الذي يعمل وقاية من الحديد)، وعندما أطلق من السجن إلى سجن آخر فكوا قيده ووجدوا الورقة فرفعوها للإمام.

وفي أحد الأيام طلبني الإمام وقال لي الأب يؤدب ابنه وبعدما جلست قال قل الأبيات الرائية ومن حسن حظي أني كنت قلت أبياتاً موجهة إليه مدحاً فيه وطلباً للعفو وهي رائية كذلك فتداركت وقلت ياموﻻي هي أول أبيات وقلتها ورددتها له وكنت أعرف أنه يعرف أني غالطته ولكنه تغاضى وكان تغاضيه عني لأن الأجل متأخر وكذلك لأن والدي كان عنده حيث كان ليستغني عن والدي أبداً وفي جميع الأوقات.

إعلام الستينيات

يتحدث الأستاذ الحضراني عن الإعلام ووضعه بعد الثورة حيث كان مسؤولاً عن الإذاعة فيقول: الإعلام حسب تلك المرحلة أدى وظيفته حسب القدرات والامكانات فكانت البرامج متعددة بين البيانات والزوامل والأناشيد الثورية وعدد من البرامج.

ويضيف: بالمصادفة التقيت بعد المصالحة بالأخ/ علي الفضيل، وكان هو من تولى إعلام الملكيين فقلت له: ماهو انطباعك كرجل إعلام عن اليمنيين؟ فقال لي كلمات قليلة: المواطن اليمني ممثل عظيم، قلت كيف قال: عندما يسمعك يتظاهر لك بأنه صدّقك من جميع النواحي وهو يريد بذلك أن يقول إن المواطن اليمني أصبح لديه وعي للتمييز.

ويقول الحضراني: إن أهم أغنية ثورية ألهبت مشاعر الشعب بعد الثورة كانت للأستاذ/ سعيد الشيباني والتي تقول: «أنا فداء السلال فداء بلادي».

وهو كشاعر وكاتب كان أول من كتب يوميات «الثورة» (الصحيفة) يقول كنت من كتاب صحيفة «الثورة» وأول من كتب يومياتها التي كانت تتمحور حول القضايا الهامة في وقتها وتمثل وجهة النظر الحكومية حيث كنت أستشف من الوضع مايعبر عن وجهة النظر هذه.

قفزات نوعية

وعن وضع اليمن بعد مرور ٤٢ عاماً للثورة الخالدة يقول الحضراني: مامن شك أن اليمن شهدت خلال هذه السنوات من عمر الثورة قفزات نوعية في جميع المجالات في التعليم الذي امتد من المدن إلى السهول والجبال، وكذلك الصحة والطرقات.. والثورة حسب رأيه جاءت لتغيير الواقع المتخلف الذي أرهق الشعب لفترات طويلة، وكما يقول: حققنا الكثير في جميع المجالات ولكن كنا نستطيع أن نعمل أكثر مما هو موجود.

أما أهم هدف تحقق فهو كما يقول: الوحدة اليمنية أهم شيء حققته الثورة السبتمبرية الخالدة.

وكذلك يرى أن جيل الحاضر والثورة استطاع أن يكتسب العلم والمعارف وهو متسلح بالوعي الذي كان الأحرار يأملون أن يروا الشعب اليمني وهو متسلح به حيث كانت المعاناة كبيرة والوعي بها قليل نتيجة السياسات الإمامية، فكان الناس للأسف نتيجة المعاناة والجوع والفقر يعيشون في وضع حصر الوعي لديهم بأمور توفير لقمة العيش فقط.